مركز نماء للبحوث والدراسات
Namaa Center for Research and Studies
نماء وانتماء

namacenter

أوراق نماء

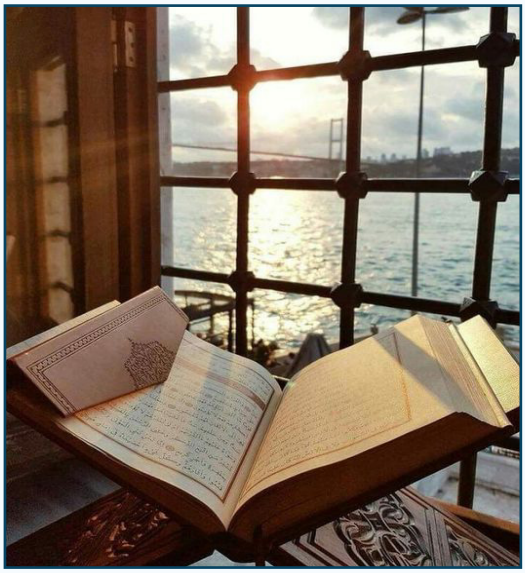

القصص القرآني
بين منهج التفسير التراثي والقراءات الحداثية
ومقتضى تجديد منهج النظر

د. محمد كنفودي

القصص القرآني
بين منهج التفسير التراثي والقراءات الحداثية
ومقتضى تجديد منهج النظر

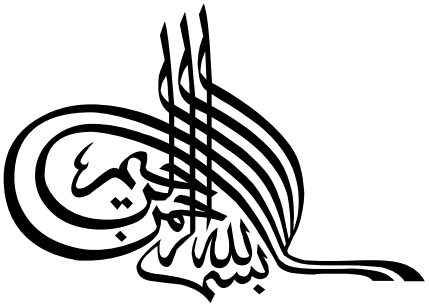
بسم الله الرحمن الرحيم

القصص القرآني

بين منهج التفسير التراثي والقراءات الحداثية ومقتضى تجديد منهج النظر

د. محمد كنفودي

المحتويات

الموضوع	الصفحة

أولًا: كثرة وتنوع سياقات آيات القصص القرآني يدلان على الناظم النسقي الموضوعي الرابط، الذي يحتم منهج التفسير الترتيلي للقصص القرآني ٩

ثانيًا: كثرة وتنوع آيات القصص القرآني يدلان علىٰ ناظم الاستقلال الداخلي الموضوعي، الذي يستبعد مسلك الإسقاط الخارجي المحمّل ١٥

١- محور عقيدة الذبح والفداء ١٧

٢- محور الحنيفية ومبادؤها الكليّة ٢٠

إن منهج قراءة آيات القصص القرآني ما زال يتخبط في شراك العديد من الأعطاب، التي أفقدها معناها ومغزاها، علىٰ الرغم من كثرة المحاولات الاجتهادية في تاريخ الفكر الإسلامي. فمثلًا إذا حققت النظر في منهج التفسير التراثي، تجده في الغالب مولعًا بالتوسل بمعهود أهل الكتاب، من اليهود وغيرهم من أهل الثقافات السائدة في منطقة الشرق الأوسط، فضلًا عن طغيان منهج التحديد التاريخاني؛ من حيث تعيين الأزمنة والأمكنة والأحداث والأشخاص ونحو ذلك. والناظر في مصنفات التفسير والتاريخ التأسيسي يقف علىٰ ذلك جليًا[1]. أما مناهج القراءات الحداثية، وإن نحىٰ أهلها في الغالب منحىٰ النقد التاريخي الجذري لمنهج التفسير التراثي، الذي أفضىٰ بهم إلىٰ إحداث «القطيعة المطلقة» معه، فقد تخبّطوا هم بدورهم في شراك العديد من الآفاق المنهجية والمعرفية، جامعها المنهج الإسقاطي الخارجي المحمّل؛ بحيث إنه طغىٰ عليهم الولع بربط آيات القصص القرآني بمختلف الاكتشافات الغربية الحديثة، خصوصًا ما تعلق منها بالتاريخ والآثار ونحو ذلك.

وعليه؛ فإن ما يهمنا أساسًا في هذا البحث، هو تطوير منهج قراءة آيات القصص القرآني، بعيدًا عن أعطاب السابقين، ودون اللجوء إلىٰ ناظم «القطيعة المطلقة»، أو هَمّ «المخالفة التعسفية»، بل إن أساس الانطلاق المنهجي، هو «القطيعة الواعية»، التي بقدر ما تصل «الحي» من التراث والاجتهاد، تقطع مع «الميت» منهما، بغض النظر عن مصدره الإنساني أو انبثاقه الزمكاني، فضلًا عن النظر الموضوعي المجرد عن مطلقة «القبليات»؛ بوصفها عوائق منهجية ومعرفية حقيقية[2]، إذ مراعاة ذلك، تُعَدُّ من أهم أسس الاجتهاد المعتبر، وما نقدمه في هذا السياق، لا يتجاوز عتبة التسهيم الأولي في الموضوع.

---

(١) رغم محاولات تنقية آيات القصص القرآني من الموروث السائر قبل نزول القرآن، من قبل مجموعة من العلماء قديمًا وحديثًا، فإن الموضوع ما زال يحتاج ضرورة إلىٰ تكثير البحوث وتعديد الدراسات، بالنظر إلىٰ اتساع سريانه، ليس في كتب التفسير والتاريخ فحسب، بل في حقول معرفية إسلامية شتىٰ.

(٢) يُعَدُّ ذلك من أهم الضوابط المنهجية التي نسير علىٰ وفقها في مختلف الدراسات والمقالات المتعلقة بالقرآن التي نقدمها.

إن الناظر في نص القرآن، يجد أن آيات القصص باعتبار الموضوع أكثر من أي آيات موضوع آخر من حيث النسبة، فضلًا عن تنوّع سياقات ورود موضوع آيات القصص ضمن نص القرآن، وكثرتها مع تنوعها يدلان علىٰ أمور عدة، يتم بناءً عليها تأسيس منهج النظر فيها، ومن ذلك، النواظم الكلية الآتية:

أولًا

كثرة وتنوع سياقات آيات القصص القرآني يدلان على الناظم النسقي الموضوعي الرابط، الذي يحتم منهج التفسير الترتيلي للقصص القرآني

إن مختلف القصص الوارد في نص القرآن، الذي يتكرر ظاهريًا في مجموعة من السور القرآنية، إلا أنه لا تكرار فيه بالمعنىٰ المعهود باطنيًا علىٰ الحقيقة؛ ذلك أن القصة كلما تكررت في نص القرآن، أفادت معاني جديدة، باعتبار سياقها في السورة. ولتحقيق ذلك، يكفي الناظر التوسل بمنهج التفسير «الترتيلي-التوحيدي»، القائم علىٰ ناظم مراعاة موقع القصة في سياقات سور القرآن جمعًا، ليتحقق من ذلك الأمر دون مسبقات موجهة. وهذا الناظم ينتظم مختلف القصص القرآني كله؛ سواء كانت القصة مما يتردد ذكرها كثيرًا في القرآن، أو مما لا يتردد ذكرها، أو سواء كانت القصة قد وردت في عدة سور، أو في سورة واحدة من القرآن ونحو ذلك[1]. ولبسط القول في هذا المسلك، نقدم عرض قصة آدم عليه السلام في نص القرآن[2].

---

(١) فمن القصص التي تردد ذكرها بسياقات مختلفة في القرآن قصة موسىٰ عليه السلام. ومن القصص التي تولت سورة واحدة بيانها، قصة يوسف عليه السلام في سورة يوسف.

(٢) إن قصة آدم عليه السلام تُعَدُّ من أهم القصص التي ألصقت بها تاريخيًا خرافات وأوهام شتىٰ؛ سواء عند أهل الكتاب من اليهود والنصارىٰ، أو عند المسلمين في تراثهم، مع العلم أن القرآن قدّمها ليتحرر الوعي الإسلامي من كل ذلك، خصوصًا ما يتعلق بالخطيئة.

وردت قصة آدم في القرآن في العديد من السور بمختلف سياقاتها، ومن أهمها: البقرة [٢٩- ٣٠]، آل عمران [٣٣- ٣٤. ٥٨-٥٩]، المائدة [٢٩-٣٤]، الأعراف [١٠-٢٦]، الحجر [٢٨-٣٨]، الإسراء [٦١- ٦٢]، الكهف [٤٩]، طه [١١٢-١٢١]، ص [٧٠-٨٠]، الزمر [٧].

نورد بناءً علىٰ سياقات ورود قصة آدم في نص القرآن، المحاور الكلية الآتية، التي تنتظم القصة، ومنها:

أولًا: بيان قضية الخلق وطبيعته.

ثانيًا: بيان قضية الاصطفاء ومستلزماته.

ثالثًا: بيان قضية التكليف ومقتضياته.

رابعًا: بيان قضية الصراع ومنطلقاته(١).

نأخذ قضية «التكليف» لتبيان متعلقاتها ومتجلياتها في قصة آدم عليه السلام في نص القرآن، وتجدها تدور علىٰ النواظم الأساسية الآتية:

١- في سورة البقرة ورد تكليف الله تعالىٰ لآدم عليه السلام بـ «الخلافة في الأرض»، الذي جاء بعد تأهيل آدم للخلافة، من خلال ما ترمز إليه مسألة «تعليم آدم الأسماء كلها»، وهذا التكليف الخبري وجودي، لا يرتبط بآدم عليه السلام لوحده، إلا من حيث كونه كان بداية له، بل يعم كل أبناء آدم من بعده إلىٰ أن يرث الله الأرض ومن عليها. يقول الله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٢٩](٢). وقد اشتملت قصة آدم في سورة البقرة تكليفًا آخر، جاء بعد أمر الله تعالىٰ الملائكة بالسجود لآدم، فامتثلت، إلا إبليس أبىٰ واستكبر، وهو تكليف لآدم وزوجه، ويشتمل علىٰ أمر ونهي؛ فأما الأمر، فهو السكن في الجنة والأكل منها رغدًا في أي وقت وحين. وأما النهي، فهو عدم قربان الشجرة. يقول الله تعالىٰ: ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا

(١) تحتاج في الحقيقة هذه القضايا إلىٰ تفصيل لتبيان معانيها ومغازيها من خلال ورودها في سياقات نصوص القرآن.

(٢) نلاحظ أن الأمر التكليفي بالخلافة في الأرض، جاء لآدم عليه السلام؛ من حيث كونه أصل الجنس الإنساني كله.

حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٣٤][1]. على الرغم من تبيان النهي والتحذير، فإن آدم وزوجه أغواهما الشيطان بالوسوسة، فأكلا من الشجرة المنهي عن الأكل منها، فكان من نتائج ذلك، إخراجهما من الجنة. الجنة التي كانا فيها، فاعترف آدم بذنبه، فتاب إلى الله تعالى، فتاب عليه. يقول الله تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [البقرة: ٣٥][2].

٢- في سورة الأعراف جاءت قضية تكليف آدم عليه السلام مسبوقة بأمر «التمكين في الأرض»، وتأهيلها لتكون صالحة للعيش فيها، فضلًا عن بيان بعض أهم متجليات التفضيل، الذي يتعلق بآدم وأبنائه من بعده. يقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ . . . [الأعراف: ٩]. ثم جاء أمر الله تعالى لآدم وزوجه بالسكن في الجنة والأكل مما فيها، فضلًا عن النهي عن قربان الشجرة. إلا أن الشيطان بعد أن أنظره الله تعالى إلى يوم يبعثون، وسوس لهما فأكلا من الشجرة، فأخرجهما الله منها، بعد أن اعترفا بما اقترفا، هذا وإن كان خاصًا بهما، فإن النهي عن اتباع وسوسة الشيطان، يشمل كل أبناء آدم في مطلق الزمن الدنيوي. يقول الله تعالى:[3] ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ﴾ . . . [الأعراف: ١٨][4].

٣- في سورة طه جاءت قضية تكليف آدم عليه السلام مسبوقة بذكر نسيان آدم للعهد[5]، فضلًا عن بيان وجه من أوجه تكريم آدم، بسجود الملائكة له، إلا

---

(١) نلاحظ أن التكليف الإلهي لآدم وزوجه عليهما السلام، جاء مجسدًا أكثر منه مجردًا، سواء في جانب الأمر أو النهي؛ من حيث كونه يعكس المرحلة الأولى من مراحل التكليف.

(٢) إن العبرة الأساسية المستفادة من ذلك، تتحدد في أن عدم تقيد الإنسان بطاعة الله أمرًا ونهيًا، يفضي به إلى زوال النعم، فضلًا عن العقوبة.

(٣) الضمير المفرد المنفصل «أنتَ»، دال على الاصطفاء من بين موجودات أخرى كانت موجودة مع آدم عليه السلام. انظر توجيه ذلك في: القصص القرآني قراءة معاصرة، محمد شحرور، ص. ٢٧١ وما يليها.

(٤) إن من أهم مهمات الشيطان في الوجود، في علاقته ببني آدم مطلقًا، تحقيق «الوسوسة»، التي لا تكون إلا من خلال الإيعاز بفعل الشر والمعصية. تأمل آية سورة إبراهيم. ٢٤.

(٥) إذا كان آدم عليه السلام قد نسي العهد، فإن بنيه قد نسوا الميثاق [الأعراف: ١٧٢-١٧٤]. لذلك، فإن طه عبد الرحمن يقول: «لو خيّرت في تعريفه -الإنسان-، فما كنت لأعرّفه بغير كونه الموجود الذي ينسى أنه ينسى». روح الدين من ضيق العَلمانية إلى سعة الائتمانية، ص. ١٣-١٦.

إبليس لم يكن من الساجدين. يقول الله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ . . . [طه: ١١٢]. ثم وردت قضية التكليف مفصلة؛ سواء في شق النهي المتمثل في عدم طاعتهما لوسوسة إبليس؛ بوصفه عدوًّا لهما، فلا يوسوس لهما إلا بشر، من باب الانتقام منه حسدًا، إلا أنهما أكلا من الشجرة المنهي عنها من خلال طاعة إبليس. وبعد تحقيق عصيان آدم لربه، اجتباه ربه فتاب عليه، وأخرجهما مما كان فيه إلىٰ الأرض. أو في شق الأمر، المتمثل في أن الله تعالىٰ قد ضمن له في الجنة ضرورات الحياة، إلا أن ذلك رهين بالتقيّد بما جاءه عن الله نهيًا وأمرًا. يقول الله تعالىٰ: ﴿فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ﴾ . . . [طه: ١١٤][1].

بناءً علىٰ ما تقدم، نورد بعض الملاحظات المتعلقة بقضية تكليف آدم عليه السلام في قصته في القرآن، ومنها:

أ- لا تكرار بالمعنىٰ المعهود في قصة آدم عليه السلام في القرآن، إذ كلما ذكرت في أي سياق في أي سورة من سور القرآن، أفادت معاني جديدة، خصوصًا في تعلقها بقضية «التكليف» التي نحن بصددها، فضلًا عن عموم القضايا الأخرىٰ. وليس هذا الأمر مقتصرًا علىٰ قصة آدم فحسب، بل يشمل كل القصص القرآني. فمثلًا في سورة البقرة، تعلقت قضية «التكليف» أساسًا بأمر «الاستخلاف» و«تعليم آدم الأسماء كلها». وفي سورة الأعراف، فقد تعلقت أساسًا ببيان ما أخذه إبليس علىٰ نفسه اتجاه آدم وذريته، فضلًا عن تبيان مضمون وسوسة إبليس لآدم وزوجه للأكل من الشجرة، وما حدث لهما جسديًا بعد الأكل منها، والمتعلق أساسًا بأمر اللباس ودوره، علاوة علىٰ بيان الكلمات التي مثلت توبة آدم وزوجه. وأما في سورة طه، فقد تعلقت أساسًا ببيان أن عصيان آدم لله تعالىٰ بالأكل من الشجرة المنهي عنها طاعة لإبليس، كان نتيجة نسيانه للعهد، بالإضافة إلىٰ تبيان ما ضمنه الله تعالىٰ لآدم وزوجه في الجنة لو استقاما علىٰ الطريقة أمرًا ونهيًا. مع

(١) اشتمل النص القرآني علىٰ الضروريات الأساسية التي تقوم عليها حياة الإنسان الكريمة؛ بحيث إن فقدَ بعضها أو جلّها، تتحول حياة الإنسان إلىٰ شقاء لا يحتمل.

العلم أن قضية تكليف آدم في قصته، تتمحور حول نواظم كلية جامعة، هي بمثابة الثابت البنيوي في القصة[1].

ب- إن قضية «التكليف» في قصة آدم عليه السلام، يمكن تقسيم أحكامه أمرًا ونهيًا إلىٰ قسمين: قسم يتعلق بآدم حصرًا، باعتباره مناطه الأصلي الأول، مثل: النهي عن الأكل من الشجرة، الأمر بالسكن في الجنة، الإخراج من الجنة بعد العصيان. ويلحق بآدم زوجه حواء عليها السلام. وقسم آخر يعم آدم وزوجه وذريتهما من بعدهما، مثل: الأمر بـ«الاستخلاف في الأرض»، النهي عن طاعة وساوس الشيطان، الأمر بالتوبة بعد ارتكاب المعصية ونحو ذلك[2].

ج- تدل قضية «التكليف» في قصة آدم عليه السلام، علىٰ أن أمر التشريع الحكمي كان في مختلف مراحله الأولىٰ عمومًا، وفي مرحلة آدم خصوصًا، ينتظم في ناظم «التجسيد» لا «التجريد». تأمل هذه العبارة في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ [البقرة: ٣٤] [الأعراف: ١٨].

وعليه يمكن القول: إنك بمنهج قراءة «الترتيل» أو «التوحيد»، يمكّن من الإحاطة الممكنة بالدلالات الكلية للقصة القرآنية، أو بأي قضية من قضاياها الجامعة، دون اللّهث وراء المنقولات الإسرائيلية المحمّلة ومختلف المأثورات الأخرىٰ، التي تفقد القصة القرآنية مبناها ومعناها[3].

---

(١) إن لأي قصة من القصص القرآني ثوابت بنيوية، تنتظم في ناظمها الكلي جزئيات متفرقة في سياقات نصوص القرآن. ففي قصة آدم عليه السلام، تجد أن الثابت البنيوي في قضية «التكليف»، التقيد بأمر الله ونهيه التكليفي. أما الجزئي المتغير فيها سياقيًّا، فهو موضوع تعلق «التكليف».

(٢) يبدو أن هذا التقسيم ضروري، بالنظر إلىٰ كونه ينسجم مع الخصائص النصية الكبرىٰ للقرآن.

(٣) أغلب تلك الروايات الإسرائيلية المتداولة في مصنفات التفسير وغيرها، تجدها متعلقة بالأنبياء والرسل عليهم السلام. انظر مثلًا ما تعلق بداود عليه السلام عند تفسير قوله تعالىٰ: [ص: ٢٢. ٢٣]. في: التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جُزي الكلبي، ضبط وتصحيح وتخريج. محمد سالم هاشم، دار الكتب العلمية، بيروت. لبنان، ط. ١، ١٩٩٥، ج. ٢، ص. ٢٥١. ٢٥٢. وكذا ما تعلق بيوسف عليه السلام، خصوصًا تفسير قوله تعالىٰ: [يوسف: ٢٤]. نفسه، ج. ١، ص. ٤١٢. ٤١٣. وغير ذلك كثير.

ثانيًا
كثرة وتنوع آيات القصص القرآني يدلان على ناظم الاستقلال الداخلي الموضوعي، الذي يستبعد مسلك الإسقاط الخارجي المحمّل

من أهم النواظم المنهجية الكلية التي تحتف بنص القرآن كله، أنه بيان وتبيان لذاته بذاته، الذي يقتضي أن دلالاته يتم التوصل إليها من خلال ما يحتويه نص القرآن من عبارات نصية أو ألسنية، أو علامات سياقية أو سميائية، دون اللجوء إلىٰ ما هو خارجي محمّل لبيانه، بغض النظر عن مصدره[1]، إلا ما صح من سنة الرسول عليه الصلاة والسلام، خصوصًا إذا كان الموضوع يتعلق بما سماه الله تعالىٰ في القرآن «أنباء الغيب»[2]. إذ من شأن التعامل مع نص القرآن وفق مسلك الإسقاط الخارجي المُحمّل، أن يحرّف لغة ودلالات النص. وقد أشار الله تعالىٰ في القرآن إلىٰ هذا المسلك، في سياق حديثه عن قصة إبراهيم الخليل عليه السلام في قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ . . . [آل عمران: ٦٤]. فضلًا عن سياقات نصية موضوعية أخرىٰ. إذ يعد هذا المسلك

---

(١) إذ كل ما تم اللجوء إلىٰ ما هو خارجي عن القرآن لتفسيره أو قراءته، إلا وأفضىٰ ذلك إلىٰ مجموعة من الآفات، أهمها: تسويغ القبلي، الانتقاء المذهبي، كثرة الاختلافات الحادة، إهدار خصوصية القرآن نصًّا ودلالة ونحو ذلك.

(٢) تأمل الآيات الآتية: [آل عمران: ٤٤]. [هود: ٤٩، ١٠٠]، [يوسف: ١٠٢]. ومفهوم «أنباء الغيب»، تعلق في هذا السياق بالقصص القرآني.

الشرط اللازم الضروري لمنهج «الترتيل-التوحيد»، الذي بُسِطَ القول فيه في تناولنا لقصة آدم عليه السلام في نص القرآن سابقًا. ولبيان فعالية هذا المسلك الذي بصدد بيانه علىٰ مستوىٰ موضوع القصص القرآني، نأخذ من باب التمثيل لذلك، قصة إبراهيم عليه السلام في نص القرآن[1].

وردت قصة إبراهيم في القرآن في العديد من السور بمختلف سياقاتها، نذكر من أهمها: [البقرة: ١٢٣-١٣٢، ٢٥٧- ٢٦٩]. [آل عمران: ٣٣، ٦٤-٦٧، ٩٥-٩٧]. [الأنعام: ٧٥-٩١]. [التوبة: ١١٥]. [هود: ٦٨-٧٥]. [إبراهيم: ٣٧-٤٣]. [الحجر: ٥١-٥٦]. [النحل: ١٢٠-١٢٣]. [مريم: ٤٠-٥٠]. [الأنبياء: ٥١-٧٢]. [الحج: ٢٤- ٢٥]. [الشعراء: ٦٩-٨٩]. [العنكبوت: ١٥-٢٦]. [الصافات: ٨٣-١١٣]. [الزخرف: ٢٥-٢٧]. [الذاريات: ٢٤-٣٧]. [النجم: ٣٥- ٣٦]. [الممتحنة: ٤- ٥].

نورد بناء علىٰ سياقات ورود قصة إبراهيم عليه السلام في نص القرآن، المحاور الموضوعية الكلية التي تنتظمها، ومنها:

أولًا: محور التجارب الإبراهيمية وكيفياتها.

ثانيًا: محور البشرىٰ بالإنجاب ومقاصدها.

ثالثًا: محور البيت العتيق والحج إليه.

رابعًا: محور عقيدة الدعوة إلىٰ الله والأسوة الحسنة فيها.

خامسًا: محور عقيدة الذبح والفداء وغاياتها المتعالية.

سادسًا: محور الحنيفية ومبادؤها الكلية[2].

نفصل القول في بعض هذه المحاور، من باب بناء القول فيها، بالتوسل بالسياقات النصية القرآنية المتصلة بها، والمتعقلة بقصة إبراهيم عليه السلام في القرآن، ونبدأ بـ:

---

(١) تُعَدُّ شخصية إبراهيم الخليل عليه السلام محورية خصوصًا عند أهل الكتاب من اليهود والمسلمين أساسًا.

(٢) كل محور في الحقيقة من هذه المحاور يحتاج إلىٰ تفصيل من خلال النصوص المتعلقة به في القصة القرآنية.

١- محور عقيدة الذبح والفداء

أخبر الله تعالىٰ في القرآن في سياقات قصة إبراهيم عليه السلام، أنه كان شيخًا[(١)]، مسّه الكبر، فصار عجوزًا عقيمًا، وكذلك امرأته، كانت عجوزًا. يقول الله تعالىٰ: ﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ﴾ [هود: ٧١]. وقوله سبحانه: ﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾ [الحجر: ٥٤]. وقوله أيضًا: ﴿فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ [الذاريات: ٢٩]. وعلىٰ الرغم من ذلك، بشّره الله تعالىٰ -أو بشرهما سبحانه- بـ «غلام عليم» أو بـ «غلام حليم». يقول الله تعالىٰ: ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ﴾ [الصافات: ١٠١]. وقوله سبحانه: ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾ [الذاريات: ٢٨][(٢)]. وهذا الفعل متعلق أساسًا بقدرة الله تعالىٰ -المعجزة-، التي لا تخضع لمجريات العادة وتقاليد الأعراف الإنسانية ومألوفها. يقول الله تعالىٰ: ﴿أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [هود: ٧٢]. وقوله سبحانه: ﴿قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الذاريات: ٣٠][(٣)]. فضلًا عما تحلّىٰ به إبراهيم عليه السلام من عقيدة التعلق بالله تعالىٰ والإخلاص له، لذلك وصفه سبحانه بقوله: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٥]. وقوله: ﴿إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ﴾ [هود: ٧٤].

بناءً علىٰ ما سلف، فإن الناظر في مصنفات التاريخ والتفسير والحديث في تاريخ الفكر الإسلامي، يجد أن الاختلاف المتعلق بهذا المحور، يدور حول أمور عديدة، نذكر منها ما يلي:

أ- تعلق «البشرىٰ» أول الأمر، أبإسماعيل أم بإسحاق عليهما السلام؟ والاختلاف فيه صوري، ما دام أن إبراهيم الخليل عليه السلام كان عجوزًا عقيمًا، فسواء بُشر أولًا بإسماعيل أو بإسحاق، فالأمر سيان، فضلًا عن ذلك، فإن البشرىٰ في القرآن

---

(١) من أهم السياقات القرآنية التي ورد فيها مفهوم «الشيخ»، قصة إبراهيم عليه السلام، ويتعلق علىٰ مستوىٰ الدلالة بالإنسان الطاعن في السن. تأمل قوله تعالىٰ: [غافر: ٦٧]. انظر: مفردات ألفاظ القرآن، ص. ٢٨٨.

(٢) كون الوصف قد تعدد سياقيًا وتنوع مفاهيميًا أو قيميًا، فهو ولا شك دال علىٰ تعدد البشرىٰ لإبراهيم عليه السلام وزوجه.

(٣) إن «المعجزات» التي يكرم الله بها أنبياءه ورسله عليهم السلام، لا تخضع لناظم معهود الناس وما ألفوه في حياتهم، إذ هي قائمة أساسًا، كما هو بيّن من صريح نصوص القرآن، علىٰ خرق المعهود العادي.

تعلقت بإسحاق تصريحًا. يقول الله تعالىٰ: ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ﴾ [هود: ٧٠]. وتعلقها بإسماعيل تلميحًا؛ بوصفه هو الابن البكر، الذي تعلق به أمر الذبح والفداء كما سنرىٰ. يقول الله تعالىٰ: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ [الصافات: ١٠١].

ب- تعلق رؤيا «الذبح» في المنام، أبإسماعيل أو بإسحاق عليه السلام؟ توجد نصوص ومنقولات عديدة في التراث الإسلامي التفسيري والتاريخي، توافق المنظور اليهودي، بأن الذبيح هو إسحاق وليس إسماعيل، بل توجد جملة أحاديث في مصنفات السنة أثبتت ذلك[1]. إلا أن الناظر في قصة إبراهيم في نص

---

(١) ممن ذهب مذهب «أهل الكتاب» من اليهود نذكر علىٰ سبيل المثال: من الصحابة: العباس بن عبد المطلب وعبد الله بن عباس وعبد الله بن مسعود وعمر بن الخطاب وعبد الله بن عمر وعلي بن أبي طالب وجابر بن عبد الله. ومن التابعين: مسروق وابن جريج وعلقمة والشعبي ومجاهد وابن جبير وقتادة وعكرمة ومقاتل والزهري والسدي ومالك بن أنس وأبو حنيفة وابن سابط وغيرهم. ومن عموم علماء الأمة المعتبرين: النحاس والطبري والقاضي عياض وابن الجوزي والسهيلي والقرطبي وغيرهم، باعتباره «أولىٰ» القولين و«أقوىٰ النقل» عن الرسول عليه الصلاة والسلام. وفي المقابل، ذهب جمع من الصحابة والتابعين وغيرهم من عموم علماء الأمة، إلىٰ أن الذبيح هو «إسماعيل» لا «إسحاق» عليه السلام. والبعض الآخر من أهل العلم قد توقف، كالسيوطي والزجاج والبغوي والخفاجي والشوكاني؛ نظرًا لشدة الاختلاف وكثرة الروايات والآثار المتباينة. ومن أغرب ما قيل في المسألة غرابة عنقاء مغرب، أن بعض الشيعة يرون أن الذبيح هو «الحسين» بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما، بطرق تأويلية تقويلية تعسفية، من باب «التلاعب اللامحدد واللامحدود» بدلالات ومفاهيم نصوص القرآن الحكيم. ينص القرطبي علىٰ أن «أقوىٰ النقل» عن الرسول عليه الصلاة والسلام في المسألة، أن الذبيح هو «إسحاق»، فإذا كان الأمر كذلك، فإن قول المخالف لا اعتبار له، ما دام أن النص الشرعي الصحيح الصريح يقطع الشك باليقين. ومن تلك الأحاديث التي يشير إليها القرطبي وغيره، وإن كان أهل التحقيق من المتقدمين والمتأخرين قد تكلموا فيها، نذكر ما أخرجه البزار وابن جرير وابن أبي حاتم والحاكم وابن ورديه عن العباس بن عبد المطلب قال: قال رسول الله عليه الصلاة والسلام: «**قال نبي الله داود: يا رب أسمع الناس يقولون: رب إبراهيم وإسحاق ويعقوب، فاجعلني رابعًا، قال: «إن إبراهيم ألقي في النار فصبر، وإن إسحاق جاد لي بنفسه، وإن يعقوب غاب عنه يوسف، وتلك بلية لم تنلك**». وأخرج الدارقطني والديلمي عن ابن مسعود قال: قال رسول الله عليه السلام: «**الذبيح إسحاق**» ومثله رواه ابن جرير وابن مردويه عن العباس بن عبد المطلب. وغير ذلك من الروايات كثير. وقد نص أهل الصنعة الحديثية، أن جملة هذه الأحاديث موقوفة علىٰ رواتها من الصحابة إن صحت، وليست مرفوعة. لذلك، لا ترتقي إلىٰ التأسيس الموضوعي المجرد. فضلًا عن أن قصة «الذبح والفداء» قد علقت بها تاريخيًا الكثير من المعاني والملامح الأسطورية العجيبة والغريبة والمدهشة، بدءًا من رؤيا الذبح، مرورًا بتنفيذه، وانتهاء بالفداء العظيم وبقايا أثره إلىٰ عهد قريب من زمن نزول القرآن علىٰ الرسول عليه الصلاة والسلام ونحو ذلك. والأمر ما نجتهد في بيانه إجمالًا في المتن.

القرآن، يجد أن الذي تعلق به ذلك، هو إسماعيل وليس إسحاق، ومما يدل علىٰ ذلك:

* بعد أن ذكر الله تعالىٰ قصة الذبيح في سورة الصافات، أعقبها ذلك بشرىٰ إسحاق لإبراهيم، وهي البشرىٰ الثانية؛ بالنظر إلىٰ أن «البشرىٰ» تعلقت بإسماعيل وإسحاق معًا، باعتبار أن إبراهيم كان قبلها قد مسّه الكبر فصار شيخًا أو عجوزًا عقيمًا، فلا يكون الذبيح إلا إسماعيل. يقول الله تعالىٰ: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ﴾، إلىٰ أن قال سبحانه: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الصافات: ٩٩-١١٢].

* في كثير من السياقات النصية القرآنية في قصة إبراهيم عليه السلام، تجد أن إسماعيل يأتي بعد ذكر إبراهيم ثم يعقبها ذكر إسحاق عليه السلام، وهذا الأمر دال علىٰ أن إسماعيل هو الابن البكر الذي تعلق به الذبح، وإلا فلا معنىٰ لذلك الترتيب. يقول الله تعالىٰ: ﴿قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ﴾ [البقرة: ١٣٢]. وقوله تعالىٰ: ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ﴾ [البقرة: ١٣٥]. وقوله سبحانه: ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ﴾ [البقرة: ١٣٩]. وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ﴾ [النساء: ١٦٢]. وقوله أيضًا: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [إبراهيم: ٤١][1].

* ارتبط ذكر إسماعيل بإبراهيم عليه السلام في مهمة تطهير البيت العتيق ورفع قواعده، وهو أمر دال علىٰ أن إسماعيل هو الابن البكر الذي تعلق به الذبح والبلاء المبين. يقول الله تعالىٰ: ﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ﴾... ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٤-١٢٦].

---

(١) مع العلم وجود العديد من السياقات النصية القرآنية، يأتي فيها إسحاق مباشرة بعد إبراهيم عليه السلام. تأمل النصوص الآتية: [الأنعام: ٨٥]، [مريم: ٤٩]، [الأنبياء: ٧١]، [العنكبوت: ٢٦].

٢- محور الحنيفية ومبادؤها الكليّة

ارتبط ذكر إبراهيم عليه السلام في قصته في نص القرآن بمفهوم «الحنيفية»[١]. وقد أمر الله تعالىٰ الرسول الخاتم عليه الصلاة والسلام والذين آمنوا به، باتباع «الحنيفية». نجتهد في هذا السياق في تقديم تحديد دلالة مفهوم «الحنيفية» في نص القرآن، وفق مراعاة السياقات النصية لورود المفهوم. وقد تباينت تحديدات دلالة مفهوم «الحنيفية» في تاريخ الفكر الإسلامي، ما بين التحديد التراثي[٢] والتحديد المعاصر[٣]؛ بالنظر إلىٰ تباين المنهج ومقاصده. ونقدم دلالة مفهوم «الحنيفية» وفق ما يأتي:

أ- مفهوم الحنيفية في السياق القرآني النصي الموضوعي

ورد مفهوم «الحنيفية» في نص القرآن السياقي الموضوعي، متعدد التعلق، إذ قد تعلق بـ:

* إبراهيم عليه السلام: تأمل النصوص القرآنية الآتية: يقول الله تعالىٰ:

- ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا﴾ [البقرة: ١٣٤].
- ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا﴾ [آل عمران: ٦٦].
- ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠].

* الرسول الخاتم عليه الصلاة والسلام: تأمل قوله تعالىٰ:

- ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النحل: ١٢٣].
- ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣].

---

(١) ورد أيضًا مفهوم «الحنيفية» في مجموعة من النصوص الحديثية، ومنها: صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب ٢٩. صحيح البخاري، حديث رقم. ٣٨٢٦. ٣٨٢٧. ٣٨٢٨.

(٢) فعند الراغب الأصفهاني مثلًا، أن «الحنيفية» هي «الميل عن الضلال إلىٰ الاستقامة وتحري الطريق المستقيم»، الذي كان عليه إبراهيم عليه السلام. مفردات ألفاظ القرآن، ص. ١٤٩.

(٣) من التحديدات المعاصرة، تحديد نصر حامد أبو زيد، مفهوم النص، ص. ٦٢-٦٥.

- ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [يونس: ١٠٥].

* الوصف الكلي العام؛ سواء تعلق بناظم الخلق: يقول الله تعالىٰ:

- ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا﴾ [الأنعام: ٨٠].

- ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ﴾ [الروم: ٢٩].

* أو تعلق بناظم التكليف: يقول الله تعالىٰ:

- ﴿قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ [آل عمران: ٩٥].

- ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النساء: ١٢٤].

* أو تعلق بناظم السلوك: يقول الله تعالىٰ:

- ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ﴾ [الحج: ٢٩].

- ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة: ٥].

بناءً علىٰ ما تقدم، فإن مفهوم «الحنيفية» ليس متعلقًا حصرًا في نص القرآن بإبراهيم عليه السلام، بل يتعلق أيضًا بغيره؛ بالنظر إلىٰ تتبع المفهوم في السياقات النصية القرآنية التوقيفية(١).

ب- التحديد الدلالي لمفهوم الحنيفية

إن مفهوم «الحنيفية» لما يتعلق بإبراهيم عليه السلام باعتبار السياق النصي، يقصد به اتباع ما جاء به إبراهيم في ملته الموحىٰ بها من لدن الله تعالىٰ، التي لم يطرأ عليها أي تحريف في مبناها أو معناها. ذلك أن الاتباع لا يتعلق أمرًا إلا بما بقي علىٰ أصله الأول المنزل به، وإلا انتفت إلزاميته المعيارية في الأزمنة التالية(٢). ومما جاء به إبراهيم كما هو منصوص عليه في قصته في القرآن، الذي يتعين اتباعه فيه، أو اتخاذه «أسوة حسنة»(٣)، نذكر ما يأتي:

---

(١) هذا الأمر الكلي ينتظم في الحقيقة الكثير من المفاهيم السياقية الواردة في نص القرآن، بالاحتكام إلىٰ ناظم السياق التوقيفي.

(٢) انظر ما أخرجه الإمام البخاري في صحيحه، حديث رقم. ٣٨٢٦. ٣٨٢٧. ٣٨٢٨.

(٣) ورد الأمر نصًا باتخاذ إبراهيم ومحمد عليهما الصلاة والسلام «أسوة حسنة». انظر قوله تعالىٰ: [الممتحنة: ٤]. [الأحزاب: ٢١].

* جاء إبراهيم عليه السلام بالإسلام وكان مسلمًا وسمّي من اتبعه مسلمًا؛ بحيث إن ماهية الإسلام أساسًا تقوم في هذا السياق علىٰ ناظم التوحيد خلقًا واعتقادًا وسلوكًا، الذي ينفي بطبيعته التعدد=الشرك في الخلق والاعتقاد والسلوك. يقول الله تعالىٰ:

- ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ١٣٠].

- ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِۦمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ﴾ . . . [البقرة: ٢٥٧].

- ﴿إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ . . . [الأنعام: ٨٠].

- ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ . . . [الأنعام: ١٦٢].

- ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ﴾ [الحج: ٧٦].

* جعل إبراهيم عليه السلام عقيدة التوحيد؛ بوصفها ناظم الإسلام، معيارًا للوصل أو لقطع العلاقة بالآخر، بغض النظر عن القرب أو البعد رحميًا كان أو غيره[1]. يقول الله تعالىٰ:

- ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٥].

- ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا﴾ [مريم: ٤٨].

- ﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٧٥-٧٧].

- ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ﴾ [الزخرف: ٢٥، ٢٦].

---

(١) يتحدد ذلك أكثر في قصة نوح عليه السلام مع ابنه، كما في سورة هود، يقول الله تعالىٰ: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [هود: ٤٥، ٤٦].

- ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ . . . [الممتحنة: ٤].

* يقوم منهج إبراهيم عليه السلام في الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ، علىٰ ناظم التوحيد=الإسلام، وتجفيف مظاهر التعدد=الشرك التجسيدي الاعتقادي أساسًا. يقول الله تعالىٰ:

- ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ﴾ . . . ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ [مريم: ٤٠-٤٧].

- ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ﴾ . . . ﴿إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ [الأنبياء: ٥١-٥٨].

- ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾ . . . ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [العنكبوت: ١٥-١٧].

- ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ﴾ . . . ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٨٥-٩٦].

* يتأسس منهج دعوة إبراهيم عليه السلام، علىٰ ناظم التحفيز علىٰ استخدام العقل؛ سواء في جانب التخلية أو التحلية. تأمل قوله تعالىٰ:

- ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ . . . ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٦٩-٨٩].

- ﴿قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ﴾ . . . ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٩-٦٦].

- ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾ . . . ﴿ والله لا يهدي القوم الظالمين [البقرة: ٢٥٧].

يتعلق مفهوم «الحنيفية» في سياقات نص القرآن بالرسول الخاتم عليه الصلاة والسلام، ويقصد بها السير علىٰ وفق منهج سنة إبراهيم عليه السلام، الذي أقره الله تعالىٰ عليه، كما أُشِيرَ إلىٰ كثير من معالمه في نص القرآن. وقد تجلت مقوّمات حنيفية إبراهيم فيما جاء به الرسول الخاتم، كما يظهر ذلك من النصوص القرآنية الآتية في: يقول الله تعالىٰ:

- ﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ﴾ [آل عمران: ٢٠].

- ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص: ٥٦].

- ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الزمر: ١٢].

- ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ . . . [يونس: ١٨].

- ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٧﴾ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ . . . [الدخان: ٦، ٧].

ولما يتعلق بالوصف الكلي العام المحتف بالخلق، فلا يخرج مفهوم «الحنيفية» عن ناظم الإيمان بالله تعالىٰ وتوحيده؛ بوصفه خالقًا وحيدًا له وحده الخلق والأمر المطلق دون شريك أو نِدّ، ويظهر هذا الأمر في العديد من النصوص القرآنية، منها قوله ﷻ:

- ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ [الطور: ٣٣، ٣٤].

- ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ﴾ . . . [الزخرف: ١٨].

- ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣].

- ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١٠٥].

- ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: ٧] [النساء: ١٤٥] [يونس: ٢٢].

والجامع بين ما سلف كله، ناظم الوحي المنزل، وناظم التشريع النصي أمرًا ونهيًا، درءًا لأي وضع إنساني تاريخاني، أو تأويل تقويلي مفرط. فتكون بالتبع «الحنيفية»، وصفًا كليًّا يتحدد به مَن امتثل قوائمه ونواظمه.

بناءً علىٰ ما تقدم يمكن القول: إن المقصود بالقصد الأول الأصلي، ليس هو مجرد التحديد أو التّعيين أو التّصنيف ونحو ذلك، إذ هذا مقصود بالقصد التبعي الثاني، بل هو ما تؤسسه نصوص القصص القرآني من عبر وقيم وقوانين وسنن إنسانية كونية متعالية صالحة لكل زمان ومكان، وإلا انتفت عن النص

القرآني نواظمه الكلية الأساسية، التي له باعتبار النزول لا باعتبار التأويل.

وعليه؛ فإن قراءة القصص القرآني بواسطة منهج «الترتيل التوحيدي»، من شأنه أن يعطل كل المعينات الخارجية المحمّلة، ويفضي بالتبع إلىٰ بناء تصورات نسقية موضوعية مجردة، منبثقة عن نص القرآن وحده[1].

(١) فتحسم بالتبع الكثير من الاختلافات، التي ولّدت خلافات وصراعات دينية ومذهبية ممزقة، ما زالت تتجدد وآثارها فاعلة في الوعي والوجود الجمعي أساسًا، إسلاميًّا وإنسانيًّا.